

المسار التاريخي لدراسة الانحراف

الطبيب بلعربي
معهد علم النفس
وعلوم التربية

مقدمة :

يمكن القول أن إنحراف الإنسان عن كل القوانين المعروفة ظاهرة قديمة جدا ومعقدة إلى درجة أن أقدر وأحكم الأنظمة في العالم لم تتمكن من إستئصالها نهائيا من مجتمعاتها. ونظرا لخطورة الظاهرة فقد ورد تحريمها في مختلف الديانات والقوانين وربما الأعراف. ولأجل هذا فما من مكتبة علمية في العالم إلا ويجد القارئ فيها ركنا خاصا بالمحاولات العلمية المجادة التي تبهرن على أن الإنسان حاول ولا يزال يحاول أن يجد الحل الشافي لهذه المشكلة ؛ الأمر الذي يجعل غير المتخصص في ريب من نفسه وفي تردد من الخوض في دراسة الموضوع. من هنا جاءتنا فكرة كتابة هذا المقال الذي نهدف من ورائه إلى اختصار المسار التاريخي لدراسة الظاهرة علنا نتوصل إلى تكوين صورة اجمالية للطلبة الذين يريدون البحث في الموضوع. لبلوغ هذا سنعمل على الوقوف ومن دون إطالة على أهم المحطات في هذا المسار. جدير بنا إذن أن نذكر في هذا السياق أن أقدم كتاب قانون والمعروف باسم قانون حمورابي (2270 ق.م.-The Code of Hammurabi-) قد اشار وبوضوح إلى السلوكات غير الأخلاقية

وبخاصة ما تعلق منها بالشباب، ونفس الشيء نجده في الحفريات الطينية (1750 ق.م.) التي وجدت في أراضي العراق قد تطرقت إلى الصعوبات التي عاناها الآباء من طرف أبنائهم وقتها.

هذا التراث التاريخي يعتبر الدليل الدامغ على أن ظاهرة الانحراف ليست وليدة اليوم من جهة، وأن الإنسان قد حاول عبر كل الأحقاب التاريخية أن يقضي عليها. لكن البداية العلمية الحقة لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما أسس الطبيب الايطالي سيسزار لمبروز (Cesar Lombroso 1836-1909) المدرسة العلمية (The Positive School) وبالتالي سنعتبر أن أهم محطة في تاريخ دراسة الانحراف هي هذه وبالتالي سننطلق منها لنمر لباقي المحطات وهو كما يلي :

1- الاتجاه البيولوجي :

سجل التاريخ الفضل الاكبر لمؤسس هذا الاتجاه - لمبروزو - في تحويل مركز اهتمام رجال العلم من الجريمة إلى التركيز على طبيعة المجرم أو المنحرف. بمعنى انه قبل معاقبة أي شخص جاني يجب أن يراعي وضعه من حيث السن، والحالة الصحية والاجتماعية وغيرها. كما أن التقدم العلمي في دراسة الجريمة ومحاربتها لم يكن ليصل إلى ما هو عليه اليوم لولا المبادرة التي يعود فيها الفضل دائما إلى لمبروزو.

عزا لمبروزو الجريمة في بداية مشواره البحثي في الميدان إلى عوامل بيولوجية محضة. ولكن من جراء ما تعرض له من نقد لاذع عدل جزئيا عن رأيه، حيث اعترف في كتابه " الجريمة : أسبابها وعلاجها " المنشور عام 1911 (عامين بعد وفاته) بأهمية العوامل المحيطية أيضا. ثنى على هذا التوجه أيضا اتباع لمبروزو ؛ مثلا انريكو فيري (Anrico Ferri 1856-1928) الذي ركز في كتابه "علم الاجتماع الاجرامي" (1884) على العوامل الاجتماعية أيضا. لقد حصر العوامل المؤدية إلى الانحراف في فيزيقية واثروبولوجية واجتماعية. لا يفوتنا في هذا السياق ان نذكر أن مفهوم " المجرم بالميلاد " الذي نادى به لمبروزو بدأ يفقد مصداقيته في أواخر القرن التاسع عشر، إذ لقبت الفكرة معارضة صريحة من طرف عالم الإجرام الفرنسي غابريال تارد- (Gabriel Tarde 1834-1904) الذي أكد على أن الإجرام سلوك اجتماعي مكتسب. جدير بالذكر هنا أيضا أن هذا التوجه اعتبر فيما بعد أساس كل النظريات الاجتماعية المعاصرة. إلى جانب تارد ظهر تشارلز غورينغ الفيزيائي الإنجليزي (Charles Goring 1870-1919) الذي إلى جانب تركيزه على العامل البيولوجي ركز أساسا على ذهنية المنحرف وعلى تأخره العقلي ؛ والمقابل زعم هذا العالم أن نتائجه لم تؤكد زعم علماء الإجرام الاثروبولوجيين.

بقيت أعمال هذا الأخير دون منازع إلى أن ظهر هوتون (E.A. Hooton , 1939) الذي صرح أن منهجية العالم الإنجليزي لم تكن صحيحة، وبالمقابل أكد أن الإجرام نتاج مؤثرات محيطية تؤثر فقط على الأنظمة الإنسانية الضعيفة، وعليه فالقضاء على الجريمة يتطلب القضاء على المعتل صحيا، ذهنيا، \ أو أخلاقيا ؛ أو بعزله عن المجتمع الصحي.

هوتون نفسه تعرض إلى انتقادات كثيرة لإعتبارات تذكر منها أنه إعتد عينة نصف عددها من

العائدين إلى الجريمة، وأنه عمم نتائج هذه العينة غير المثثلة، وبالتالي فلم يكن لديه الدليل الذي يثبت به وراثية الضعف الجسدي.

من جملة الانتقادات التي وجهت إلى زعماء الاتجاه البيولوجي عامة ما صرح به (D.J. West 1982) بأنهم عجزوا عن توضيح المدى الذي يمكن عنده أن يحدث الانحراف أو يدفع إليه أو يصعده. كما أن غلوك وغلوك (E.S. Gluecks, 1951) لم يجدا في دراستهما الطولية فرقا دالا بين الإعاقة الجسمية والانحراف لدى فئة المنحرفين وغيرهم.

من جهة أخرى بينت دراسات أخرى كثيرة أن الإعاقة الجسمية منتشرة أكثر بين المنحرفين القادمين من مناطق فقيرة، وباعتبار أن هذه المناطق مشبوهة أكثر من طرف السلطات فإن جل السجناء من هذه المناطق مما أدى بالبيولوجيين إلى سوء التقدير.

إن المحدثين من أنصار الاتجاه البيولوجي ومنهم شوارتز (Schwartz, 1979) يؤكدون على التداخل بين الجانبين العضوي والمحيطي. فقد صرح هذا الأخير بأن التأثير العائلي والجانب البيولوجي يتداخلان بكيفية معينة ينتج عنهما السلوك غير العادي؛ في حين نجد المعارضين أمثال سايرل بارت (Cyril Burt, 1929) يصرح بأن وجود ورم في غدة من الغدد لدى اللص لا يعني بالضرورة أن الورم دفعه للسرقة، ولا إزالة هذا العيب سيجعله يتوقف عن السرقة، وهذا بسبب أن العيب العقلي يكون قد تجذر فيه.

الخلاصة وحسب فولد (G.B. Vold, 1967) الجهود التي بذلها أنصار الاتجاه البيولوجي لتأكيد افتراضاتهم لم تأت بأية نتيجة تؤكد ما جعلها تترك المجال مفتوحا أمام علماء النفس والاجتماع. إلا أن كالي وشيكور (Kelly, Schicor, 1980) صرحا بأنه من الخطأ الفادح أن نهمل الفرضية البيولوجية في البحث عن الحقيقة. من هنا نستنتج أن الجدل ما زال قائما حول إمكانية تدخل العامل البيولوجي في الانحراف، ولكن التفكير في كونه العامل الوحيد أصبح أمرا محسوما.

2- الاتجاه النفسي :

لم تبق نظرية لمبروزو وحيدة في الميدان إذ ظهر فرويد (Sigmund Freud, 1856-1939) مؤسس مدرسة التحليل النفسي الذي يرى أن الانحراف نتاج معاناة أو صراع بين - نفسي (Intrapsychic Struggle).

يمكن تقسيم الاتجاه التحليلي إلى قسمين رئيسيين هما :

أولا : نظريات الغريزة (Instinct Theories) والتي ترمي إلى وجود فرق بين

المؤثر الناتج داخل الجسم والمؤثر الخارجي المنقول عن طريق الإدراك. وحسب فرايدلاندر (Kate Friedlander, 1951) وهي إحدى أتباع فرويد، يمكن اجتناب المؤثرات غير المرغوبة والآتية من الخارج في حين أن النابعة من الداخل إذا لم تكبح فإنها تواصل تأثيرها إلى أن تحدث ضغطا.

وحسب فرايدلاندر دائما فإن الانحراف ينجم عن الاضطراب الحاصل في مجالات العقل الثلاثة (الأنا- الأنا الأعلى - الهو) ولا يشذ عن هذه إلا المجرم الذي أصبح كذلك لاعتناقه القاعدة الأخلاقية المحيطة ؛ وبسبب تشبع غير المنحرف بالحب والامتنان يمكنه أن يحبط المؤثرات غير المرغوبة وبالتالي يكون أنا إجتماعيا أو شعورا ؛ والذي يساعد الإنسان على أن يحد من ضغط الأنا ويتكون لديه أنا أعلى قوي.

من جملة الإنتقادات ضد مدرسة التحليل النفسي أن معظم النظريات المتتمة إليها لا تفرق بين انسان وآخر في محتوى الأنا .. ولذا فإن كل الأطفال يكونون مجرمين إلى أن يتعلموا غير ذلك.

بالنسبة لهذه النظرية فالفعل الانحرافي (The delinquent act) تعبير عن اندفاعات غير اجتماعية تجدد طريقها خلال شرح في بنية الأنا الأعلى والهو. ردا على هذا يقول كل من روتر وغلير (Ruther + Giller, 1983) هناك ثروة من الدلائل تقرن الانحراف بمؤثرات عائلية مختلفة، في حين لا يوجد من دليل على أن المؤثرات تفعل فعلتها في السنوات ما قبل المدرسة. كما لا يوجد دليل امبريقي يثبت أن أساس العملية هو اللاشعور.

ثانيا : نظرية ديناميكية حل المشكلات (Psychodynami problem solving theories)

إن أحسن هذه النظريات ربما يكون لويليام هيلي و اوغستة برونر (Augusta Bronner + William Healy , 1936) وهي نظرية سيكولوجية وسيكايتيرية وعمل إجتماعي، ومفادها أن المنحرفين عوضوا متطلباتهم النفسية بالعدوانية وبالسلوك المتشدد.

لقد عورضت هذه النظرية لاعتبارات أهمها التحليلات السيكايتيرية المعدة مسبقا وذاتية التفسيرات. وهذا يعود أصلا إلى كون الدارسين للمنحرفين سواء كانوا سيكايتيريين أوعمال اجتماعيين ينطلقون دائما من خلفية أن أصل الانحراف إختلالات وجدانية.

إضافة إليه فإن ميخائيل حكيم (Micheal Hakeem , 1957 / 8) قام بتحقيق حول الإختلالات الوجدانية لدى المنحرفين، واتضح له أن نتائج التحقيق أوحى بانحياز السيكايتيريين أكثر مما بينت أنها سمة من سمات المنحرفين.

قائمة النقاد لم تنته عند دراسة هيلي و برونر وإنما مست كل الدراسات الماثلة في توجهها، ومنها دراسة شلدون و ايلينور غلوك (S.E. Gluecks, 1950)، ستاك و أصحابه (Stack et al, 1953)، مليسر (Miller, 1966)، جاسنس (Jesness, 1962). كل هذه الدراسات تعرضت للنقد إما لعدم ثبات و تحيز نتائجها أو لعدم إمكانية مراجعتها امبريقيا ... نفس الشك من مصداقية هذه الدراسات أكدته الدراسة الطولية لواست (D.J. West, 1982) والمعروفة بتقرير كامبريج، والتي بينت بأن السبب الرئيسي في الانحراف إنما يعود إلى الريح المادي السريع، و في المرتبة الثانية التسلية والنشوة، وصرح واست في ختام دراسته أن الانحراف في الغالب يكون نتيجة مجموعة من الضغوط بدلا من أي عامل أحادي.

الشاهد في كل ما تقدم ذكره أن نتائج مختلف الدراسات نفت استقلالية العامل النفسي كعامل

وحيد في الإنحراف، و نفت بالإطلاق صلاحية التحليل النفسي في دراسة الانحراف، ولم يتم الإتفاق حول عاملي الشخصية والذكاء ؛ و عليه سنحاول فيما يلي أن نذكر جملة من الآراء حول كل عامل.

أ- الشخصية :

إذا اعتبرنا أن الشخصية من المواضيع التي يوليها علماء النفس أهمية كبيرة في علاقتها بالإنحراف كان لزاما علينا في هذا المقام أن نذكر بنظرية هانس آيزنك (H. Eysenck, 1964) باعتبارها من بين أحسن النظريات إن لم تكن أحسنها على الإطلاق. لقد صممت هذه النظرية مبدئيا لتفسير السبب الذي يجعل الإنسان لا يرتكب الجرائم وليس العكس.

فعلى حد زعم آيزنك الأطفال غير عقلاء ومتخلفين بطبعهم ويعود السبب في عدم قيام الناس بالجرائم إلى أن الشعور يعمل بصورة معاكسة لنزعة التخلف. من هذا المنطلق نجد الأطفال يقومون بأفعال غير شرعية كالسرقة والتعدي ولكن معاقبتهم تعلمهم كيف يحجمون عن السلوك غير المرغوب. وتكرار العقوبة يؤدي إلى تكوين استجابات شرطية لإيقاف الأفعال المماثلة. وبالنسبة لصاحب النظرية فالاستجابة الشرطية في هذا السياق تماثل مفهوم الشعور.

تعرض هذا التوجه إلى انتقادات كثيرة منها أن آيزنك غير كثير من مفردات استبيانه مما كون صعوبة في تقدم نظريته، كما أن نتائج دراسات كثيرة أخرى أعطت نتائج غير التي توصلت إليها دراسات آيزنك ؛ ومن هذه الدراسات نذكر دراسات برايس (Price, 1968)، ماك فيرسون و أصحابه (Mc Pherson et al, 1974)، ديفيز (Davis, 1976). وحسب واست (1982) فإن اختبار آيزنك استعمل في دراسة كامبريج وكانت النتيجة أنه لا دخل لعامل الشخصية في الإنحراف. نفس النتيجة توصل إليها بايرون (Biron, 1975) في دراسته الطولية التي استخدمت استبيان آيزنك (J.E.P.I.) إلى جانب الاستبيان الخاص بالدراسة.

إضافة إليه قال غيبونز (Gibbons, 1974) شيء واحد يمكن التركيز عليه حول الإتجاه النفسي عامة ألا وهو أن أصحابه كانوا عمي بكم عن معدلات الإنحراف. فلقد زعموا بوجود علاقة بين الشخصية والإنحراف ولكنهم عجزوا عن تفسير السبب الذي جعل هذا السلوك ينتشر في مناطق خاصة دون الأخرى.

ب- الذكاء :

ينفي بعض علماء الاجتماع وجود أية علاقة للذكاء بالإنحراف في حين أن علماء النفس يقررون وجود هذه العلاقة.

مؤيدوا الفوج الأول من العلماء يزعمون أن الشخص محدود الذكاء يسهل التعرف عليه أكثر من غيره عند قيامه بأية مخالفة.

فعلى حد زعم هاسكل و يبلونسكي (Haskell + Yablonsky, 1974) طفل الطبقة الفقيرة يظهر على أنه مختلس للسيارة، و طفل الطبقة المتوسطة يظهر إلى الشرطة على أنه مستعير

للسيارة. لذا فليس السلوك في حد ذاته الذي يلفت الإنتباه ولكن المستوى المعيشي. من جهة أخرى يقر كل من هيرشي و هندلانغ (Hirschi + Hindlang, 1977) بأن اختبارات الذكاء تميل إلى قياس مدى اكتساب و تحصيل الشخص لقيم الطبقة المتوسطة أكثر من قياس ذكائه. في نفس الوقت قام العالمان المذكوران بمراجعة عدد من الدراسات كانت قد جرت في مناطق مختلفة من العالم واعتمدت مقاييس مختلفة للذكاء، وكانت الخلاصة العامة أن للذكاء علاقة وطيدة بالإنحراف (على الأقل الرسمي منه) ؛ وبالتالي يمكننا أن نفترض أن للذكاء علاقة ولو غير مباشرة بالإنحراف. وتتمثل هذه العلاقة في أن محدود الذكاء يخفق في دراسته مما يكون لديه صورة مشوهة عن المدرسة، مما يجعله يبحث عن تعريض في مجالات أخرى منها الإنحراف.

3- الاتجاه الاجتماعي :

تجدر الإشارة هنا أن كل النظريات الاجتماعية تتحد حول فكرة أن الإنحراف نتاج أوضاع إجتماعية سيئة، لكنها تختلف حول الطريقة أو الطرق التي تجعل من هذه الأوضاع مؤثرا سلبيا على الإنسان . من النظريات المنتمية إلى الاتجاه الاجتماعي نذكر مجموعة نظريات الضغط (Strain theories)، وهي مجموعة نظريات تفترض أن الأشخاص الذين يحرمون من بلوغ غايات شرعية يتجهون اتجاهات مغايرة للقاعدة العامة. ربما أحسن هذه النظريات هي نظرية اللاتناغم (Anomie, 1957) لمارتون (R.K. Merton) والمستوحات من مفهوم اللاتناغم لدوركايم (Durkheim, 1895). الإنحراف بالنسبة لمارتون ينتج عن إحباط مسجل في تحقيق النجاح و الرقي الاجتماعي المفروض من طرف النظام الاجتماعي العام.

يعاب على هذه النظرية تحيزها و طبقية أسسها و كونها توصلت إلى نتائج متناقضة. ثم أن مارتون لم يتمكن من توضيح الأسباب التي تؤدي ببعض الأشخاص إلى الإنحراف تحت بعض الضغوط في حين يتمسك البعض الآخر بالقاعدة العامة تحت نفس الضغوط والشروط.

من النظريات الاجتماعية أيضا نظريات الرقابة (Control theories) و التي تفترض أن ضعف الوثق الاجتماعية (Social bonds) يفرز الإنحراف. و عليه فلكل شخص استعداد للإنحراف ما لم يجد أمامه قوانين و وثق إجتماعية قوية. لذا فهذه النظريات تبحث في الحقيقة عن الأسباب التي تجعل الناس يخترقون القوانين التي يؤمنون بها، و لا تبحث عن السبب في اختلاف معتقداتهم حول السلوك المقبول وغير المقبول، ماتزا (David Matza, 1964) أحد رواد هذا الفوج من النظريات يعتقد بأن الأشخاص لا يساقون إلى خرق القوانين و لكنهم يفعلون ذلك لكون تعلقهم العادي بأنماط السلوك الاجتماعي قد تحطم مؤقتا.

يتضمن الاتجاه الاجتماعي أيضا نظرية الإتحاد الفارق (Differential Association theory) والتي تشبه في توجهها العام نظرية مارتون السالفة الذكر. ساذرلاند (Sutherland, 1939) مؤسس هذه النظرية يرى أنه لا الشخص ولا النظام الاجتماعي مسؤولان عن الإنحراف وإنما الكيفية التي أسس عليها النظام الاجتماعي هي المسؤولة. و حسبها فالسلوك الإجرامي يتعلم ضمن أفواج إجتماعية ملتزمة. الشخص يصبح منحرفا عندما تتغلب فرص خرق القانون على فرص

الإمتثال له.

قوبلت هذه النظرية كغيرها من النظريات الإجتماعية بالرفض لغموض مفاهيمها (كفرض خرق القوانين) ولعجز صاحبها عن توضيح السبب في كون نفس الظروف الإجتماعية لا تؤثر سلبا على كل الأشخاص. وعلى هذا كريسبي (Cressy, 1953) يرى بأنه من غير المعقول أن يكون الإجرام مكتسبا عن طريق التفاعل دائما. من جهة ثانية نجد شلدون وايلينور غلوك (1950) يعارضان فكرة تعلم الانحراف لكون أن بعض الأشخاص ينحرفون بدافع بيولوجي كالنزوة الجنسية مثلا. وبالتالي فالسلوك المثالي هو الذي يتعلم لا العكس.

هناك مجموعة أخرى من النظريات الإجتماعية صنفّت تحت عنوان نظريات الثقافات الفرعية (Sub-cultural theories) ويشترك هذا القسم من النظريات مع نظرية اللاتناغم في أن الانحراف سمة من سمات الطبقة الكادحة، ولكنها لا تتفق معها في كونه نتاج ضغط وإحباط، بل سلوك يتعلمه الشخص مثل أي سلوك آخر.

فعلى حد زعم كوهين (David Cohen, 1955) أحد رواد هذه النظريات، الثقافة الفرعية تكتسب عن طريق التفاعل بين أفرادها. وهذه الثقافة عبارة عن أنماط سلوكية منظمة بشكل مناف لأنماط الثقافة الأم. السرقة بهذا المعنى لا تكون بفرض الإشباع المادي وإنما هي نمط سلوكي يجلب المتعة لصاحبه لكونه يحطم به مفهوم الموانع الإجتماعية.

بعد هذا العرض الوجيز عن أهم النظريات الإجتماعية يجدر بنا أن نذكر أن كل نظرية منها تعرضت إلى وابل من النقد وبالتالي فلم يعد ينظر إليها إلا كنتائج متفرقة لعملية معقدة جدا لم يعد ممكنا دراستها بغير التناول الحديث نوعا ما الا وهو الإتجاه متعدد العوامل (The multiple factor orientation) والذي بدأ في الظهور في الربع الأول من القرن العشرين على يد ويليام هيلي (William Healy) الذي نشر كتابا في 1915 ثم 1929 عنوانه " الشخص المنحرف " والذي عرض فيه مجموعة العوامل الحاضرة في كل حالة انحراف. وفي عام 1925 ظهر سايرل بارت (Cyril Burt) بدراسته صرح من خلالها بوجود أكثر من 170 ظرفا كلها تدفع إلى الانحراف. وتوصل إلى وقد نفس نتيجة هيلي التي مؤداها أن اصل العوامل وطريقة تركيبها تختلف بشكل متباين من شخص لآخر. هاتان الدراستان كانتا بمثابة المبادرة لقائمة كبيرة من البحوث و الدراسات الحاضرة اليوم بين أيدي القراء.

الخاتمة

- نستنتج مما سبق ذكره حول المسار التاريخي لدراسة الانحراف، النقاط التالية :
- 1- أن ظاهرة الانحراف قديمة جدا وأن محاولات التصدي لها أيضا لم تكن وليدة عصرنا بل ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ.
 - 2- ان الظاهرة موضوع هذه المقالة معقدة جدا والدليل على ذلك، العدد الهائل من الدراسات والنظريات ومختلف الإجهادات المسجلة لإيجاد الحلول الشافية والكافية لها.
 - 3- ان الظاهرة وإن اختلفت حدتها من زمن لآخر ومن مجتمع لآخر فهي ملازمة لكل المجتمعات على اختلاف انظمتها ونحلها واعراقها.
 - 4- تعتبر الظاهرة، رضا يختلف عن الأمراض العضوية التي ان اكتشفت مضاداتها في بيئة من البيئات المختلفة كفت مختلف البيئات الأخرى عناء البحث عن عللها، فعلاج الانحراف مهما كان محكما في مجتمع ما لا يعني بالضرورة أن ذلك العلاج نافع في مجتمعات أخرى، ولذا نجد التضارب في الآراء والتفسيرات المقدمة من طرف العلماء في مختلف بلدان العالم.
 - 5- ان الظاهرة مازالت تتطلب البحث عن عواملها وخاصة في المجتمعات التي مازال البحث فيها في مقدماته.
 - 6- على الباحثين اليوم اخذ العبرة من الإنتقادات والتصويبات التي وجهت في السابق إلى مختلف العلماء.

ملاحظة

اعتمد الباحث في كتابة هذا المقال على رسالة دكتوراه من اعدادته. وفيما يلي المرجع لمن يريد المزيد من المعلومات.

*An Enquiry into some factors of juvenile delinquency in Algeria.
Ph.D. 1987 G.B. (Unpublished Thesis)